مشكلة الانتحار

بقلم مكرم سمعان . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤

ان « مشكلة الانتحار » دراسة رزينة وفريدة . وتعود رزانتها الى الاسلوب العلمي الذي تبعه الاستاذ مكرم سمعان ، مؤلف هذا الكتاب ؛ وهي فريدة من نوعها لا لانها ادخلت على الموضوع مفاهيم نفسية – اجتماعية جديدة ، بل لانها وضعت باللغة العربية وعن قطر عربي ، هو الجمهورية العربية المتحدة .

يستهل الكاتب دراسته بتعريف الانتحار بانه عمل ارادي غايته تدمير النفس بالنفس . فهو بذلك ظاهرة انسانية بحتة ، بحيث ينتفي على الحيوان العمل الارادي . وللانتحار ، كظاهرة انسانية ، مكانات مختلفة عند الشعوب . فمنهم من يقيمه كعمل فدائي ، كما جرت العادة عند اهل اليابان ؛ ومنهم من يحسبه ضربا من ضروب الجبن والتهرب من مسؤولية الحياة ، كما هي الحالة عندنا في العالم العربي . غير ان الاقدام على الانتحار ، في اية حالة ، يكسب المنتحر او الشارع في الانتحار نوعا من الاكتفاء الذاتي وشعورا بانجاز الغرض . واصدق شاهد على هذا عودة الشارع بالانتحار والحافق في تنفيذه الى حالة سلوكية طبيعية فيما بعد .

ويتصل هذا الاكتفاء الذاتي بدوافع الانتحار مباشرة . ففي المجتمعات التي لا تتقبل السلوك الانتحاري يقدم المرء على فعلته عندما تتضارب مفاهيمه مع مفاهيم المجتمع وآراء الآخرين الى حد لا يقبل المساومة مخرجا . فيولد هذا التضارب شعورا بالعزلة المرعبة ويقينا بتفاهة « الأنا » . وبذلك يصبح الانتحار مخرجا لهذا التضارب . وقد يصح هذا القول على جمهرة المنتحرين الذين ينحون باللائمة على انفسهم لا على الآخرين . غير ان الاستاذ مكرم سمعان اظهر من خلال الوثائق الشخصية التي جمعها عن ستة وستين شخصا انتحروا عام ١٩٥٩ في مدينة القاهرة ان نسبة الذين انحوا باللائمة على انفسهم يفوق نسبة الذين لاموا الآخرين ، ولكن اكثر الذين شرعوا في الانتحار واخفقوا تنفيذه (وعددهم واحد وخمسون) انحوا باللائمة على الآخرين .

ثم يستعرض المؤلف بشيء من التفصيل كثيرا من الدراسات الغربية التي تناولت هذا الموضوع ، ويستأنف من بعد ذلك بحث الموضوع في مصر على ضوء هذه الدراسات والاستنتاجات المستقاة منها . فيقارن بين المنتحرين فعلا والشارعين في الانتحار ممن فشلوا في تنفيذه ، بالنسبة الى اعمارهم واجناسهم وجنسياتهم ودياناتهم ومهنهم ومكانتهم العائلية ودرجات تعليمهم ، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية . ويستخلص المؤلف من هذا العرض ان اعمار المنتحرين والشارعين بالانتحار في مصر ، خلافا للنتائج التي تضمنتها الدراسات الغربية ، تتراوح بين العشرين والاربعين سنة وتكاد تنعدم بعد هذه السن ، بينما تتزايد نسبة المنتحرين في الغرب مع ازدياد السن حتى الستين . ويختلف هذا الامر بالنسبة للجنس ؛ اذ اثبتت الاحصاءات في مصر وفي الغرب ان نسبة الذكور بين المنتحرين تفوق بكثير نسبة الاناث ، غير ان نسبة الاناث بين الشارعين في الانتحار تفوق نسبة الذكور . ويتجلى هذا الفرق في الوسائل المستعملة لتنفيذ عملية الانتحار ، كما انه يتجلى في اختيار مكان الانتحار . فبينما يختار المنتحرون وسائل فتاكة ، يميل الشارعون بالانتحار الى استعمال وسائل اقل خطرا ، ويؤثرون الامكنة العامة لتنفيذ مخططهم ، حيث يكونون على مرأى من الناس .

ويظهر من الاحصاءات المصرية ان الفرق في النسب بين اصحاب الجنسيات والديانات المختلفة ليس فرقا مميزا . بيد ان ذوي التعليم العالي واصحاب المهن العملية والمتعطلين عن العمل كانوا اكثر ميلا الى الانتحار من غيرهم . وكذلك هي الحال في صفوف المطلقين والذين لم يتزوجوا او الذين كانوا يسكنون بمفردهم .

ثم يذهب الاستاذ مكرم سمعان في تفسير هذه الظواهر، فيردها الى عامل اساسي وهو عامل الشعور بالعزلة والغربة . ولكنه ، زيادة على ذلك ، يتناول بالتفسير كل ظاهرة من هذه الظواهر على حدة . وهنا قد تكمن نقاط الضعف في كتاب « مشكلة الانتحار » ، اذ ان اكثر هذه التفسيرات مقتضبة حتى الابهام وتقليدية وغير مرتبطة مباشرة بالنظم الاجتماعية السائدة في مصر . ولنعط مثلين على ذلك .

اولاً ، يعزو الكاتب الفرق بين الغرب ومصر بالنسبة لاعمار المنتحرين الى « تحول المجتمع المصري الصناعي وما ينتج عن هذا التحول من تضعضع في التقاليد القديمة وقدرتها على الضبط والتوجيه » .

هذا تفسير يحتمل الجدل . فقد يفسر هذا القول سبب ازدياد نسبة عامة المنتحرين في مصر مع ازدياد حركة التصنيع، ولكنه لا يفسر بالضبط سبب ازدياد نسبة المنتحرين بين صغار السن بالنسبة لكبار السن . اذ لو صح هذا الافتراض لكان من المتوقع ان تزداد نسبة المنتحرين في الغرب بين صغار السن بالنسبة لكبار السن بقدر ازدياد النشاط الصناعي هناك . ولكن الحالة في الغرب هي عكس ذلك .

يظهر لي ان هذه الظاهرة – ظاهرة الفرق في اعمار المنتحرين بين الغرب ومصر – قد تعود الى انعدام حضارة خاصة بالاحداث في مصر ووجودها في المجتمعات المتصفة بالاستهلاك الجماعي المتزايد ، واخصها في الغرب . فتزايد نسبة المنتحرين بين الاحداث في مصر قد يعود الى طغيان حضارة الراشدين المتمثلة بسلطة الآباء القاسية على الابناء ، وثورة الابناء الاحداث على هذه السلطة وعلى ذلك الطغيان . وما الانتحار في نظري سوى ثورة نفسية على سلطة اجتماعية فشل المنتحر في استيعابها فتحداها بتدمير نفسه .

ثانياً ، يرجع الاستاذ مكرم سمعان ازدياد نسبة الانتحار بين الذكور وقلتها بين الاناث الى امرين اساسيين : الامر الاول يتعلق بالعناية الفائقة التي تتلقاها الانثى بالنسبة للذكر ؛ والامر الثاني يتعلق بتورط الذكور في مشاكل الحياة اكثر من تورط الاناث .

التفسير الثاني منطقي ومعقول . واما الاول فهو مبعث للشك ، والسبب في ذلك كون الذكور في حضارتنا محط عناية الاهلين لاعتبارهم ركيزة العائلة والمجتمع . فهم دعائم البيت والمستقبل ، ولذلك يهتم الاهلون باعدادهم اعدادا يتلاءم مع متطلبات مكانتهم الاجتماعية الحاضرة من جهة والمكانة التي يصبون اليها من جهة اخرى . يزاد الى هذا القول اختلاف طرق تقدير الذكر والانثى وما ينتج عن هذا التقدير من تفاعل اجتماعي والانفعال النفسي المرتبط به .

تقدر قيمة الذكر بنسبة نجاحه في مجتمعه وبنسبة ما احرزه من اعمال . ونجاحه ، الى حد بعيد ، هو من صنع يده . اما قيمة المرأة فتعود الى قضايا خارجة عن ارادتها ، كالجمال الجسماني مثلا . فالرجل اذاً مسؤول عن مصيره ، ولذلك يتحسس مشاكله بعنف شديد ، مما يؤدي به ، ان اختل ميزان هذا التحسس ، الى الانتحار . بينما تجد المرأة نفسها غير مسؤولة عن مصيرها ، فمصيرها مرتبط بعوامل خارجية لا قوة لها عليها. وهذا يضعف التحسس بالمشاكل الاجتماعية عند المرأة والانفعالات النفسية التي قد تنشأ عنها. ويدعم هذا الرأي تفوق نسبة المنتحرين من البروتستانت على نسبة المنتحرين من الكاثوليك ، كما اشار الى ذلك دوركايم في حينه ، اذ قد جعلت الكنيسة البروتستانتية الفرد مسؤولا عن خلاص نفسه باعماله . وهذا ايضا ما يفسر كثرة المنتحرين من المتعلمين وقلتهم بين الاميين ، اذ ان المتعلم اكثر تحسسا بمشاكل حياته .

لقد اجاد المؤلف في بحثه مشكلة الانتحار في مصر ، وذلك باتباعه النهج العلمي الدقيق الى حد غدت عنده اطروحته لشهادة الماجستير كتابا قيما يجدر الاطلاع عليه. ولكن يبدو لي انه قد قصر في تفسير بعض مظاهر الانتحار وردها الى اصلها الكامن في المعتقدات الحضارية التي تسود المجتمع المصري . وكنا نتمنى على الاستاذ سمعان ان يستفيض في شرح هذه الظواهر ، لا ان يوجزها بتفسيرات عامة ومقتضبة .

فؤاد اسحق الخوري